

إنه رعبٌ وليس خوفاً ما تشعر به وأنت في سيارتك، متجهاً من بيروت إلى صيدا.

تصل إلى أول أوتوستراد الناعمة، إنها الساعة الثالثة بعد الظهر من يوم الخميس الخامس والعشرين من الشهر الأول من العام السابع بعد الألفين...

السيارات ترتدُّ عائدة، السائقون يقولون: ارجع! هنالك حاجز يقطع الطريق، تدير السيارة كما يفعل الآخرون، السيارات لا تحصي؛ السيارة سلحفاة، والحجارة تنهمر كالرصاص، لقد وصل بعض عناصر الحاجز ركضاً لمنع السيارات من الهرب، اثنان منهما مسلحان بالعصي والحجارة أحاطا بسيارتك قبل أن يتحرك رتل السيارات الهاربة...

يختارونك من بين الجميع، لشبهة أنك تنتمي إلى الفريق الآخر، هل يكفي "الايشارب" دليلاً على الهوية المفترضة؟ طالما أن لا إشارة أخرى إلى اسم القبيلة أو العشيرة أو الفريق المعادي؟

الحجارة تنهمر على السيارة من جميع الاتجاهات والعصا!

لقد نسيت العصا!

رعبٌ لم أشعر به طيلة ثلاثين عاماً وقذائف العدو تنهمر حول منزلي أو مدرستي، لو أنها قذائف عدوة، لتركت السيارة جانباً واحتميت بسقف أو بحائط...

ما معنى أن يكون لك سقف تظن أنه يحميك؟ السيارة؟

السيارة ليست سقفاً يحمي، ولا حائطاً تختبئ وراءه ...

"البيت الفتى حجر"، الحجر "رمز"؟ حجر الفتى الفلسطيني طائرٌ خفيف الوزن لا يصيب إلا جندياً عدواً... أما حجر هذا البدوي المجنس حديثاً، الواقف أمامي فهو من الباطون المسلح (لم أعرف أنه كذلك إلا في اليوم التالي).

قذيفة العدو تميمك فوراً، يكون عمرك قد انتهى، تموت شهيداً يعتز أبنائك بموتك، أو أنك تموت ولا يعنك ماذا سيقول الآخرون لحظة تأبينك إفرادياً أو جماعياً... لم تمت برصاص العدو فلنمت بحجارة الأوباش.

أما حجر هؤلاء الرعاع فله لسان أفعى (أبناء الأفاعي) رحم الله جبران، أما السنة هؤلاء الأوباش؟ فرصاصات تصيب من الكرامات مقتلاً، هذا الإعرابي ينهال عليك بشنائم لم تسمع بمثلا في حياتك، وتحتاج إلى حيوات أخرى عديدة لتستوعبها...

كنت تراه أو ترى أشباهه وأفرانه متفرقين بين السيارات في لحظات الازدحام يمسخون زجاجاً أو يبيعون علكة أو يستجدون... هو نفسه الآن يحمل حجراً من الباطون المسلح وعصاً.

لن ننفلق بعد الآن بموضوع "التسرب المدرسي" ويعقد الندوات والمؤتمرات لمعالجته، لقد حُلّت هذه المشكلة، ووجد هؤلاء وظائف ثابتة مدفوعة الأجر... من علم هذا الفتى الذي لم يبلغ الحلم كل هذه الشنائم؟

من زرع فيه حقداً يجعله يتهجم على امرأة (وكل امرأة في عرف الفتيان الأسوياء أم). نسي هذا البدوي الممعن في بداوته أن أمه أيضاً تضع على رأسها غطاءً، إلا إذا كانت البدويات المسنات، بعد أن تجنسن خلعتن غطاء الرأس والتحقن بركب الحضارة!!

ما جنس الحليب الذي رضعه، أم أنه أَرْضِعَ الآن كلاماً حاقدًا أنبت له عيوناً تقدح شرراً ولسان أفعى وأنياباً ومخالب كان "داروين" قد اقتنعنا أنها اختفت من البشر منذ عشرات الآلاف من السنين...

تخيل نفسك في برية داخل سيارة وهاجمتك الذئب، السيارة تحميك، ذئب الغابة لا يستطيع أن يحمل عصاً، ذئب البراري أبكم لا يعرف الشتائم...

لكن هذا الفتى ذا المخالب والأنياب الذئبية (رحم الله صاحب مقولة المشاعر الذئبية لدى الإنسان)، يحطم الزجاج ويكاد يحطم الرأس، وذلك المجتهد المسكين...

• ما معنى الكلام الذي اجترناه عن المدرسة والتربية والتعليم والمواطنة، إذا كنا في لحظة، نعود إلى ما قبل عهد الكتاتيب والمدارس والجامعات وكل هذا الهراء الذي تشدقنا به كل هذا العمر.

- أنت متهم بتعكير مجرى النهر، فعلت ذلك أم لم تفعل، أردت ذلك أم لم ترد، من ينجيك من هذه المحنة؟

- التزم بيتك وكفّ عن التجوال، كفّ عن الحركة طوعاً قبل أن تكف عنها كرهاً... ولتقلّ المدارس والجامعات أبوابها، لم يعد لها من ضرورة بعد الآن...

دلال عباس